قيم الحضارة الإسلامية (معاييرها و فلسفتها)

أولاً: إنها – في البدء – حضارة إيمانية، بمعنى أنها تنبثق عن أصول عقيدية مستمدة من منهج عمل إلهي.. وحي قادم من السماء.. وهي بهذا تتجاوز اعتبار (الوجود) المصدر الوحيد للمعرفة، وتتميز عن الأنشطة المعرفية الأخرى باعتماد هذا الأصل الخطير جنباً إلى جنب مع الوجود. ومن ثم تغدو الحضارة الإسلامية – بشكل من الأشكال – تعبيراً متفرداً عن ذلك اللقاء المرسوم بين السماء والأرض. وهي مهما تضمنت من أخطاء وانحرافات، متعمدة أو غير متعمدة، ومهما شذت أو بعدت – أحياناً – عن مسارها الأصيل، عن كونها التعبير الصادق للمنطلق المستمد من الجذور، المتوجة صوب الهدف، فإنها تظل في نسيجها العام.. في إيقاعها وصيرورتها وتوجهاتها ونبضها، حضارة إيمانية تعتمد (الوحي) جنباً إلى جنب مع (الوجود).

وهي من أجل ذلك تلتزم العمل في إطار منظومة القيم التي تحددها العقيدة، وليس خارج هذه المنظومة.. ويعبّر هذا الإلتزام عن نفسه في مفردات سلوكية

النشاط الحضاري وفي صيغ التعامل مع نتائجه، كما أنه يعبّر عن نفسه في توظيف هذه النتائج لخدمة الأهداف الإيمانية العليا للإنسان، وليس جعلها هدفاً بحد ذاته، أو أداة منفعية صرفة.

تتمحور إيمانية هذه الحضارة، كما هو شأن كل ممارسة إسلامية، عند (التوحيد) وتنطلق منه، منداحة دائرتها باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء.. إنه نقطة الجذب والإشعاع معا.. القلب الذي يعطي ويأخذ، يضخ ويتلقى.

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى (**لا إله إلا الله**) هو المرتكز والهدف، فإنه سيدخل منذ اللحظة الأولى، في الزمن، وسيمتد في المكان إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جل في علاه، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل، ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير.

ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى، دينية محرّفة أو وضعية. إننا هنا بازاء عودة إلى الجذور.. إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألّقها.. إن الحضارة الإسلامية سيقدر لها أن تمنح الفعل البشري وهو يعمل، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة خليفة عن الله وحده في هذا العالم، مستعمراً له وحده فيها.

في التاريخ، في الجغرافيا، في النفس، في المجتمع، في الفلك، في الطب، في الهندسة، يعبّر التوحيد الإسلامي عن نفسه.. في المعادلات الكيمياوية والجيوب واللوغاريتمات.. في المنائر الواثقة المتفردة الصاعدة إلى السماء، وفي القباب المتكوّرة على الخشوع والتسليم.. في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين.. يتجلى التوحيد كما لم يتجل في أية معرفة أخرى.

لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتماثلة وشخصيته المتفردة.. شد جزئياته وتفاريقه في أنساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد، وتنبثق عنه، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر أن يجيء معبّراً بلسان الحال عن صنع يدي نساج واحد.

على مستوى الدافع يضع التوحيد العالم المسلم قبالة الله سبحانه مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها، ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى. على مستوى الهدف تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكون متوافقة مع كلمة الله، متجاوزة ما وسعها الجهد أيما قدر من الثنائية أو الازدواج.

وفي كل الأحوال فإن التوحيد يصير دافعاً لمزيد من العطاء، ومعاملاً لوحدة هذا العطاء ومنحه سماته الأصيلة المتفردة.

في التوحيد يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد، ويتحرر العالم المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان الأخرى، فعرقلت انطلاقه الحر للكشف عن السنن والطاقات والنواميس.. إن التوحيد يضع العالم المسلم حراً في مواجهة الكتلة الكونية، فاعلاً مريداً.. يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة، للاستزادة منها، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة.. والتقرب أكثر إلى الله.

ودائماً كان التوحيد هو صمام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى، فلا تأخذ، في الأعم الأغلب، إلا ما ينسجم وإياه، ولا تمرر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية. وها هنا أيضاً أعطى التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن تتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى، كانت تنبض في إيقاعها، في كثير من الأحيان، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد بإيجاز، حيث لا يسمح المجال بالاستفاضة في موضوع يحتمل المزيد، فإن التوحيد كما يقول الدكتور إسماعيل الفاروقي رحمه الله "هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، هو الذي يربط بين أجزائها، هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها". قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجّرت عنها جميع المظاهر المكوّنة للحضارة الإسلامية.

"التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن (**لا إله إلا الله**) هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة اختصاراً لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلها. فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، إن أمكن صب كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام – وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة – كان هذا في (**لا إله إلا الله**) عنواناً للتوحيد وبالتالي للحضارة الإسلامية"[40]. وكما يقول غارودي،

القادم من نسيج حضارة الغرب التعددية ".. (**لا إله إلا الله**) هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي)"[41]، وهو يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا الإثبات على مستوى المستقبل، وما الذي يعنيه، بالمقابل، على مستوى "التاريخ".

ثانياً: وهي حضارة تميزت بتقابل موزون بين الأصالة والانفتاح.. بين القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال وبين الاستعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير، وهضمها وتمثلها.

لقد تحرّك المسلمون إلى العالم، وعبر فترة قصيرة – نسبياً – من الزمن، تمكنوا من صياغة حضارة تميزت بتلك الأصالة التي تستمد ديمومتها من تحصين الذات وعدم الذوبان في الكيانات الغريبة التي تدمّر شخصية الجماعة المسلمة وتلغي ملامحها وسماتها، ولكنها لم تنغلق يوماً على معطيات الحضارات الأخرى، بل فتحت صدرها دونما عقد ولا حساسيات على العالم الواسع، وأخذت وتمثلت كل ما هو إيجابي فعال في بنية المعارف البشرية كافة.

لقد كانت الحضارة الإسلامية قديرة على الاستجابة للتحديات، لا تنكمش دونها ولا تهرب ازاءها، بل تقابلها عبر مواجهة حوارية: تخبرها جيداً، تفككها إلى عناصرها الأولية، تمتحن هذه العناصر، تحيلها إلى تكوينها الإسلامي وبنيتها المستمدة من الوحي والوجود معاً، فتأخذ ما يتلاءم مع هذا التكوين وتمنحه القدرة على النمو والامتداد، وترفض وتبعد، وتستثني ما يعرقل حركة النمو ويضع في طريقها العوائق والعثرات.

إن تاريخ الحضارة الإسلامية هو تاريخ حوار إيجابي فعال مع الحضارات الأخرى.. تاريخ سلسلة من التحديات والاستجابات. وقد كانت هذه الحضارة قديرة، في معظم الأحيان، على تنويع أنماط الاستجابة بأكبر قدر من التكيّف والمرونة، واحتواء العناصر الإيجابية لدى الغير.. هضمها وتمثلها، وتحويلها إلى مادة بنائية في صيرورة الحضارة الإسلامية تعين على النمو، والتنوع، والغنى، والامتداد.

ثالثاً: وهي حضارة التوازن الفريد الذي يعدّ ملمحاً من أهم ملامحها وأكثرها خصوصية وارتباطاً بشخصيتها الإسلامية.

التوازن في سائر الاتجاهات، وعلى الجبهات كافة. إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة، بمثابة السدى واللحمة في النسيج.. هذا التوازن الذي يتصادى هنا وهناك، في النظرية والتطبيق على السواء.. إنه في صميم فكر الإسلام وفي قلب صيرورته الحضارية.

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة 143). والوسطية هنا ليست موقعا جغرافيا، ولكنها موقف عقيدي، واستراتيجية عمل، ورؤية نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم.. إنها القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن، وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال، ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذي لا يميل ولا يجور.

ورغم أن هذا التوازن قد تعرّض، على المستوى التاريخي، للتأرجح بين الحين والحين، إلا أنه في إطار التجربة الإسلامية يظل، بين سائر التجارب الأخرى في العالم، أكثرها وضوحاً وتألقاً.

إنها الحضارة التي قدرت، انطلاقاً من رؤيتها هذه، على أن تجمع في في كل متناسق واحد: الوحي والوجود، والإيمان والعقل، والظاهر والباطن، والحضور

والغياب، والمادة والروح، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والتراب والحركة، والمنفعة والقيمة، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، واليقين والتجريب، والوحدة والتنوع، والإشباع والتزهد، والمتعة والانضباط، والثبات والتطور، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء، والفناء والخلود.

ونريد أن نقف قليلاً عند واحدة من توازنات الحضارة الإسلامية، وهي (الوحدة والتنوع). فلقد قدم التاريخ الإسلامي في نسيج فعالياته الحضارية نموذجا حيوياً على التناغم بين هذين القطبين اللذين ارتطما وتناقضاً في الحضارات الأخرى، ووجدا في الإطار الإسلامي فرصتهما الضائعة للتلاؤم والانسجام.

فالحضارة الإسلامية هي – من ناحية – حضارة الوحدة التي تنبثق عن قاسم مشترك أعظم من الأسس والثوابت والخطوط العريضة بغض النظر عن موقع الفعالية في الزمن والمكان، وعن نمطها وتخصصها. وهي – من ناحية أخرى – حضارة الوحدات المتنوعة بين بيئة ثقافية وأخرى في إطار عالم الإسلام نفسه، بحكم التراكمات التاريخية التي تمنح خصوصيات معينة لكل بيئة، تجعلها تتغاير وتتنوع فيما بينها في حشود من الممارسات والمفردات.

إنها جدلية التوافق بين الخاص والعام، تلك التي أكدها القرآن الكريم في الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾ (الحجرات: 13) وهو يتحدث عما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية التي تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها تسعى لأن تجمعها في الوقت نفسه على صعيد الإنسانية. وهي محاولة تختلف في أساسها عن الأممية الشيوعية التي سعت – ابتداء – وبحكم قوانين التنظير الصارمة إلى إلغاء التنوع ومصادرته وإلى تحقيق وحدة قسرية ما لبثت أن تأكد زيفها وعدم القدرة على تنفيذها تاريخياً بمجرد إلقاء نظرة على خارطة الاتحاد السوفياتي (المنحلّ) حتى قبل حركة (البرسترويكا) والرفض المتصاعد الذي جوبهت به الأممية الشيوعية من قبل حشود الأقوام والشعوب التي تنتمي إلى بيئات ثقافية متنوعة[42]. ومقارنة هذا بما شهده التاريخ الإسلامي من تبلور كيانات ثقافية أقليمية متغايرة في إطار وحدة الثقافة

الإسلامية وثوابتها وأسسها الواحدة وأهدافها المشتركة، يتبين مدى مصداقية المعالجة الإسلامية لهذه الثنائية كواحدة من حشود الثنائيات التي عولجت بنفس القدرة من الواقعية في الرؤية والمرونة في العمل.

رابعاً: إنها الشمولية التي تميّز بها النشاط الحضاري الإسلامي.. القدرة على التحقق بكافة الأنشطة والامتداد إلى كافة المناحي، والتوغل في نسيج الحياة والوجود، ومتابعة كل ما من شأنه أن يهم الإنسان.

وهكذا وجدنا بناة هذه الحضارة يسعون في الأرض لكي يمسوا كل قضية ويتعاملوا مع كل موقف، ويركبوا ويبنوا من كل ما يقع تحت أيديهم من حيثيات ومواد.. فما ثمة أمر مما يهم العقل أو الروح أو الجسد أو الحس أو الوجدان، إلا قالوا فيه كلمتهم وقدّموا حسب قدراتهم، وإمكاناتهم، يومها، التعبير الثقافي المناسب[44].

لم ينكمشوا يوماً ازاء هذا الجانب أو ذاك من جوانب الكون والعالم والإنسان ولا انحسروا ازاء هذه المساحة أو تلك من سطح الوجود، ولا هربوا أو فرّوا أمام معضلة من معضلاته.

إنها الحضارة التي تشكلت لكي تقدم طعاماً أكثر مادة غذائية صالحة للعقل والجسد والروح والوجدان والحس في وقت واحد، وكانت في هذه المجالات كافة تملك الخبرة التي تمكّنها من أن تعدّ صنوفاً جيدة شهد لها الخصوم قبل الأصدقاء.

وإذا كانت معظم الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ترمي بثقلها صوب هذا الجانب أو ذاك من جوانب السعي البشري في الأرض، فتميل لأن تكون عقلية أو حسية أو حدسية أو روحية.. الخ وتصب اهتمامها على هذه المساحة أو تلك من مساحات الخبرة، فإنه في الحضارة الإسلامية ليس ثمة جنوح في هذا الاتجاه أو ذاك، فيما عدا حالات محدودة بطبيعة الحال تمثل استثناء لقاعدة، فلا يكاد يقاس عليها.

كل ما كان ينبض في نسيج العالم والحياة والوجود كان يجد صداه المناسب في نبض الحضارة الإسلامية التي كانت قديرة على تنفيذ حوار متكافئ بين الأنشطة البشرية وبين ظواهر الوجود وحقائقه ومعطياته كافة.

خامساً: وهي حضارة إيجابية بناءة رفضت التخريب والإفساد، ولم تسمح لأن تأخذ بخناقها رؤية سوداوية متشائمة للوجود والمصير وللمسعى البشري في هذا العالم، ولم تثمر نزعات هدامة كالحة كالعدمية، أو الفوضوية، أو العبثية أو حتى السريالية الموغلة في سراديب الجنس والكبت والظلام والجنون، كالذي أفرزته الحضارة الغربية. كما أنها لم تعكس، كما حدث في أوروبا، رؤى وأخيلة وفلسفات يبلغ من جموحها واندفاعها باسم التطور، والنزوع الارتقائي، أن تدمر كل الثوابت والمرتكزات والخبرات والمؤسسات المتفق عليها في تاريخ الجماعات البشرية المتحضرة، وتسوق الإنسان والمجتمع إلى نوع من الانتحار أو الاصطراع مع الذات وقوانين الفطرة والتاريخ، الأمر الذي كان يكتشف في أعقاب كل جولة من جولات الاندفاع غير المتبصر هذا، ولكن بعد أن يكون قد هدر الكثير من الفرص والطاقات.

وإذا كان ثمة مساحات تشاؤمية أو هدمية في نسيج الحضارة الإسلامية (من مثل بعض أشعار المعري أو الخيام، وبعض النزعات الصوفية المتطرفة في تدمير الذات ورفض الحياة) فهي لا تعدو أن تكون بقعاً محدودة، هي بمثابة الإستثناءات التي تؤكد القاعدة ولا تنفيها.

لقد علّمهم رسولهم ﷺ أن يمضوا في إعمار الحياة وبناء العالم ومد الخضرة في مساحاته حتى آخر لحظة.. قال لهم (إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر)[45]. ومنذ ذلك الحين كان هدف الأبناء والأحفاد أن يتزين العالم ويخضر بالحضارة المتعانقة مع قيم الحياة والتواصل والإستمرار لا أن يأتوا بالنار والدخان عليه..

سادساً: وهي حضارة واقعية.. وقد يقال بأن الحضارة الغربية نفسها، والكثير من الحضارات الأخرى عبر التاريخ، كانت واقعية هي الأخرى، فليست هذه إذن ميزة تحسب للحضارة الإسلامية.

ولكننا إذا تذكرنا أن هذه الحضارة تجاوزت في طموحاتها الكبيرة ساحة الأرض إلى السماء، ولحظات الفناء إلى عالم الخلود، وظلت في مساراتها وقيمها الأساسية مرفوعة الرأس صوب المثل الأعلى، عرفنا أن الواقعية هنا تحمل مغزاها المتميز في قدرة هذه الحضارة على عدم الانفصال عن أرضية العالم، على تجاوز الثنائية، وعلى عدم التحول شيئاً فشيئاً صوب المثالية التي تنسى موقعها في الأرض، وترفض الاعتراف بشدها وثقلها ومطالبها، وتجنح وهي تطلب السماء، إلى الأخيلة والأوهام.

سابعاً: والحضارة الإسلامية – امتدادا لهذا كله – حضارة ذات طابع إنساني – عالمي، فهي تتعامل مع الإنسان أياً كان موقعه، ولا تقتصر على الجماعة التي شكلتها فحسب.. وهي من أجل ذلك تجاوزت بل كسرت كافة الحواجز العرقية والإقليمية والجغرافية والطبقية واللونية والمذهبية لكي تحقق انتشارها على مستوى

العالم كله، كما أنها قبلت مشاركة كافة الفئات والجماعات المنضوية في نسيج المجتمعات الإسلامية، أياً كانت أديانها وعروقها وانتماءاتها.

لقد تشكلت هذه الحضارة لكي تتعامل مع الإنسان، وتكون بحجمه وتستجيب لمطامحه ومنازعه ودوافعه واهتماماته وأشواقه.. ولذلك فهي لم تضع بينها وبين الإنسان أسلاكاً شائكة باسم العرقية حيناً، أو الطبقية حيانا ثانياً، أو المذهبية حيناً ثالثاً، أو الجغرافية حيناً رابعاً.بل أنها لم تضع هذه الأسلاك حتى باسم الدين رغم أنها حضارة منبثقة عن الدين نفسه... لقد وهبت نفسها للإنسان والعالم دون أن تمارس خطيئة الانغلاق على الذات.

انه ما من حضارة في تاريخ العالم قدرت على تجاوز هذه الحساسيات جميعاً ومخاطبة الإنسان، هذا الكائن المتفرد، من حيث هو إنسان كالحضارة المنبثقة عن هذا الدين. وقد سبق أن مر بنا ونحن نتحدث عن وظائف الحضارة الإسلامية كيف إنها مارست انفتاحاً إنسانياً يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ويرفض الأنانية والاستعلاء.

لقد فتح المسلمون صدورهم وعقولهم لكل طالب علم، أية كانت الجهة التي قدم منها، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم القديم ويلفها بالنور.. لقد وضعوا كشوفهم وخبراتهم أمام الجميع، ونادوا بأعلى صوت: أن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح.. لقد كان عطاؤهم – بحق – غير محدود.

تلك هي بإيجاز شديد خصائص الحضارة الإسلامية: إنها حضارة إيمانية عقيدية ملتزمة، أصيلة منفتحة، قديرة على الاستجابة للتحديات، متوازنة، شاملة، إيجابية، بناءة، واقعية قديرة على التحقق في كافة مناحي الحياة والوجود، ثم هي في إطارها ونسيجها، إنسانية تعبّر عن طموح الإنسان لعمارة العالم وتحضيره، وتسعى للاستجابة لأشواق الإنسان ومنازعه أياً كان الإنسان في الزمن والمكان والانتماء..

من كتاب/ مدخل إلى الحضارة الإسلامية.

الدكتور / عماد الدين خليل.